الفصل السابع
رأينا في المسألة العلمية

لقد استعرضنا بوضوح تام حتى الآن مواقف الفكر الإسلامي والفكر الوضعي الغربي من قضية المرأة ، وآن لنا أن نحدد رأينا حول هذه المسألة الهامة. فيما يلي أحدد الرأي في النقاش التالي:

أولا: هيمنة الرجال:

إنّها حقيقة لا شك فيها: أن هيمنة الرجل على الحياة الخاصة والعامة ظاهرة متكررة في كل المجتمعات الإنسانية. ولا شك أنّ هذه الظاهرة تستمد وجودها من تكوين الرجل الغددي والعصبي والنفسي مما يجعله مجبولا على حب الهيمنة والسعي لممارستها بكل طاقاته ومهما كلفه ذلك من تضحيات.

ثانيا: الاختلاف بين الجنسين:

الرجال والنساء يختلفون فسيولوجيا ونفسيا وتوجد اختلافات في ملكاتهم ومواهبهم فالرجال مثلا أقدر على استيعاب الأمور المجردة ، والتداول فيها استنتاجا وتنظيرا، بينما النساء أقدر من الرجال على استيعاب المسائل المحسوسة والأمور التي تتعلق بالأشخاص تفهما لها وتقديرا لظروفها.

والدليل على تفوق استيعاب الرجل للمسائل التجريدية موجود في إحصائيات

الشطرنج، فالشطرنج من الألعاب التي تتطلب مقدارًا من التجريد والتنظير مثلها في ذلك مثل الرياضيات والفلسفة، لقد دلت الدراسة للإنجاز في هذه المجالات على الحقائق الآتية:

من بين أحسن خمسمائة لاعب شطرنج لا توجد امرأة واحدة هذا رغم أنّ النساء يشكلن ٥ ٪ من عضوية اتحاد الشطرنج العالمي.

أجرت السيدتان الينور ماكوني وروبرتا اوتزل عشرين إحصاءً دارت أرقامها حول قدرات الرجال والنساء في إدراك وفهم الرياضيات. قالتا : إنّ الإحصاءات المشار إليها أكدت الآتي:

أ. استعداد الأولاد والبنات لاستيعاب الرياضيات متساو.

ب.أما استعداد الرجال والنساء أي بعد مرحلة البلوغ في استيعاب الرياضيات فيه اختلاف كبير، الرجال أحسن استيعابا لها من النساء[1].

قالت المؤلفة بعد استعراض الإحصاءات: اعتقد أنّ ثمة عوامل وراثية هي التي تؤثر على ملكات الأولاد والبنات مثلا: الأولاد أكثر نزوعا نحو التعدي ليس فقط بمعنى أنهم أكثر ميلا للمشاجرة والتنافس، ولكن بمعنى أوسع مما يجعلهم أحرص على التفوق والهيمنة ومما يجعلهم أيضا أكثر استعدادا لأخذ زمام المبادرة وللمخاطرة.

وهذه الخصال نفسها هي التي تؤدي في طور لاحق في حياة الأولاد أي بعد البلوغ لتنمية الفكر الاستدلالي، وما يلحق بهذا التفكير الاستدلالي من قدرات على الاستنتاج وعلى استيعاب المعاني المجردة[2].

(1) ألينور ماكولي: نمو الفوارق بين الجنسين (١٩٦٦م).

(2) مقال بقلم الينور ماكولي بعنوان: قدرات المرأة الفكرية. وهو منشور في كتاب بعنوان: «طاقات المرأة». جمع مواده ومقالاته سيمور فيبر وروجر ويلسون ١٩٦٣م.

أقول: هذا لا يعني أنّ الرجال أذكي من النساء بصفة عامة، ولا أنّ معدلات الذكاء بين الرجال أعلى من معدلات الذكاء بين النساء دائما. إن التفوق الرجالي المشار إليه هنا هو في نوع واحد من التفكير ذلك هو التفكير التجريدي وفيه يتفوق الرجال مثلما تتفوق النساء في استيعاب المحسوسات.

هنالك دلائل أخرى على اختلاف ملكات الرجال والنساء ومواهبهم مثلا: أجريت دراسة في بريطانيا في عام ١٩٨٢ لحوادث السيارات في الطرق العامة وكانت النتيجة أن غالبية حوادث السيارات التي يقودها رجال تعود للأسباب الآتية: المخاطرة، الاقتحام، اللامبالاة. أما غالبية حوادث السيارات التي تقودها نساء فتعود للأسباب الآتية: الغفلة، التردد، شدة الحرص.

إنّ اختلاف ملكات الرجال والنساء أمر بحثه كثير من علماء النفس، وقديما صاغ أحد علماء النفس نظرية حول ما سماه الذكورة المطلقة والأنوثة المطلقة وهما صفتان غير موجودتين في الواقع إذ كل رجل وامرأة ينطويان على مقادير مختلفة من خصال الذكورة المطلقة والأنوثة المطلقة وان كان أغلبية الرجال ينطوون على مقادير الذكورة المطلقة أكثر من انطوائهم على مقادير الأنوثة المطلقة. والأمر بالعكس بالنسبة للنساء.

خصال الذكورة المطلقة في هذه النظرية هي: الاستدلال العقلي، أخذ زمام المبادرة، والانفتاح.

وخصال الأنوثة المطلقة هي: العاطفة، المطاوعة، والانطواء.

ومهما كانت صحة هذه النظرية، فإنها تحوم حول الاختلافات المشاهدة بين ملكات الرجال والنساء.

إنّ التسليم باختلاف الملكات لا يعني التسليم بتفوق أحد الجنسين بصفة عامة

في الذكاء على الجنس الآخر. كما أنّ الذكاء وحده، لا يشكل العامل الوحيد في الإنجاز فرب ذكي مهمل يتفوق عليه المجتهد الأقل ذكاء.

وفي السودان اطرد الدليل على تفوق البنات على الأولاد في نتائج الثانوية العليا في الأعوام الأخيرة[1]، هذا لا يدل على أنّ البنات أذكى من الأولاد ولكن أسبابه هي:

أ - الأسرة السودانية عامة تشعر الأولاد بأنهم مفضلون على البنات. هذا التفضيل يدللهم بينما يحفز البنات للتفوق لإثبات قدراتهن.

ب - المجتمع السوداني يمنح الأولاد حرية أكبر من البنات، ولذلك يصرف الأولاد كثيرا من الوقت في اللعب وانترفيه أو مجرد الجوالة والتسكع بينما تصرف البنات وقتا أكبر في المذاكرة.

ثالثا: حكمة التفاوت

الانطلاق من حقيقة تفوق الرجال في بعض الملكات وحرصهم على الهيمنة وممارستهم لها.. الانطلاق من هذه الحقائق لاستنتاج أنّ الرجال أفضل من النساء أفضلية مطلقة استنتاج غير مشروع.

إنّ الهيمنة الرجالية ظاهرة تقابلها ميزة نسوية كبرى هي الأمومة. وانّ امتياز الرجال في بعض الملكات والمواهب يقابله امتياز النساء في غيرها. وكلما تأمل الإنسان تفاوت الرجال والنساء أدرك أنّ لهذا التفاوت حكمة لكي يتكامل أداؤهم وعطاؤهم في مسؤولية الحياة ونظام المجتمع.

لقد أودع الخالق - سبحانه وتعالى - في النساء قدرات بيولوجية وسيكولوجية

(1) هذه الظاهرة كانت أكثر حلاء حين كتابة الكتاب في منتصف الثمانينيات، والسنين الأخيرة أظهرت تذبذبا في معدلات التفوق بين الصبيان والبنات في السودان.

خاصة تمكنهن من دور خاص في مهمة حفظ النوع الإنساني والتوالد.

إنّ النساء بالأمومة يكتسبن قيمة كبرى في نظر الأجيال الناشئة فالأم بالنسبة للطفل هي أهم شيء في الوجود. وعطاء النساء بالأمومة هو في ميزان الطبيعة أهم عطاء. وما ميل الرجال نحو الإنجاز والتفوق وحرصهم على الهيمنة إلا للبحث عن عطاء يوازن في أهميته عطاء الأمومة، فالأبوة وإن كانت مهمة تتخلف في أهميتها درجات عن الأمومة.

ولأهمية الأمومة فان خالق الطبيعة جعل المرأة أقوى على مغالبة المخاطر الطبيعية. فإذا عم وباء فانه يقتل من الرجال أكثر مما يقتل من النساء. لقد اهتم بعض الناس بالفوارق بين الجنسين ليتخذوا منها مبررا للتمييز بينهما، وتفضيل الرجال. وحاول آخرون التقليل من شأن هذه الفوارق ليتخذوا من ذلك مبررا للمساواة بين الجنسين.

إنّ الجنس هو أهم ما نعرف به شخصية الفرد منا. إنه أول ما نلاحظ إذا عرفناه وآخر ما ننسى من أمره أو أمرها. وكل محاولة للتقليل من الفوارق الجنسية سباحة ضد تيار الفطرة وحراثة في البحر. ولكن تأكيد الفوارق لا يعني صحة اعتبارها أساسا لاضطهاد النساء.

الجنس واقع ثنائي تختلف الذكورة فيه والأنوثة اختلافا أساسيا في التكوين البيولوجي والنفسي اختلافا هو سر التجاذب بين طرفيه فيتكامل الواقع الثنائي في اتحاد لحفظ النوع وبناء المجتمع، إنّ في تجاذب الأضداد هذا مماثلة لقانون فيزيائي حيث يتجاذب السلب والإيجاب.

لقد جنى بعض الناس جناية كبرى على هذه المعادلة الثنائية المتكاملة؛ لأنهم باسم الفوارق بين الرجال والنساء حاولوا تحطيم كرامة المرأة، وهدم ما لها من

نصف كيان الإنسان ونصف الدين ونصف المجتمع.

وجنى آخرون جناية أخرى لا تقل عن تلك فداحة إذ حاولوا إنقاذ كرامة المرأة واسترداد ما لها من نصف كيان الإنسان والدين والمجتمع بإنكار الفوارق الجنسية. ووأدوا الأنوثة أو الذكورة وأدا معنويا لكي يطيب لهم إعلان المساواة بين الجسين. انه لظلم عظيم أن نغمط حق المرأة باسم الفوارق بين الجنسين وظلم عظيم أيضا أن نسقط أنوثتها باسم المساواة.

هذان الموقفان لا يليقان بالرجل الواعي ولا بالمرأة الواعية بل إنّ واجبهما أن يعرفا الفوارق بينهما حق المعرفة احتراما لفطرتها، وأن يسعيا لانتفاع الإنسان بميزات الرجال وميزات النساء في تسيير دفة الحياة.

رابعا: ضرورة المساواة في الحقوق:

الخطأ الجسيم هو أن نقرن بين قدرات المرأة وملكاتها وبين الانتقاص من حقوقها السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

فالمجتمع محتاج للرجل وميزاته وملكاته في بناء نفسه وهو محتاج للمرأة وميزاتها وملكاتها في بناء نفسه.

ينبغي أن تتساوى الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية المكفولة للرجال والنساء وأن تصان فكرًا ودستورًا وتشريعًا. وليترك للمجتمع حرية توظيف رجاله ونسائه دون قيود وسنجد أنّ المجتمع الرشيد سوف ينتفع بالرجال والنساء حيث عطاؤهم أكبر وأداؤهم أفضل.

إذا نحن انطلقنا من الفوارق بين الرجال والنساء ورتبنا على ذلك حرمان المرأة من حقوقها السياسية والاقتصادية والاجتماعية فإنّ هذه الخطة لن تستقر بل سوف يقاومها المطالبون بحقوق المرأة رافضين الخطة. بل رافضين الأساس

الموضوعي الذي تقوم عليه نفسه.

خامسا: الضرورات الآنية:

ومهما كان استعداد النساء ومهما كان ميلهن الطبيعي فان دورهن السياسي والاقتصادي والاجتماعي لن يخضع لاستعدادهن الطبيعي وحده. ففي مجتمع يواجه حربا سوف تنشأ الحاجة لتعبئة كل أعضائه لمواجهة ظروف الحرب. وفي مجتمع يواجه تعبئة تنموية سوف تنشأ الحاجة لتوجيه كل أعضاء المجتمع للمساهمة في الهدف العام.

لذلك أقول: إنّ لتكوين النساء الطبيعي ميزات تعدهن إعدادا أفضل لوظيفة الأمومة. يقابل هذا الاستعداد في النساء استعداد طبيعي في الرجال يدفعهم دفعا إلى الأخذ بزمام المبادرة وإلى الهيمنة وهما صفتان لازمتان لوظيفتي الكسب والحماية.

إنّ التفاضل الموجود بين الرجال والنساء حقيقي، ولكنه تفاضل تكامل لا تفاضل مطلق، ولا يجوز الاستناد عليه لتقديم طرف على الآخر في ميزان المكانة الإنسانية ولا في نيل الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية.